**مقياس النظريات الأنثروبولوجية الحديثة السنة الثانية ليسانس**

**الأستاذ بشير محمد /جامعة تلمسان/الجزائر**

**المحاور الأساسية:**

6- طبيعة موضوع وطريقة البحث الأنثروبولوجي

7- القاعدة الابستيمولوجية المعتمدة

**المحاضرة الثالثة والرابعة:طبيعة موضوع وطريقة البحث الأنثروبولوجي :**

يعدّ «منذر كيلاني» من بين أبرز المساهمين في القيام بحوصلة شبه متكاملة للأنثروبولوجيا تعلق الأمر بتاريخها أو بحاضرها.لقد إعتمدنا عليه في تحديد أهم عناصر موضوع وطريقة هذا الفرع العلمي ومن بين أهم هذه العناصر نورد مايلي:

تهتم الأنثروبولوجيا بالوحدات الاجتماعية والثقافية محدودة الحجم أي الوحدات البسيطة وضرورة ربطها في علاقتها بالاطار الأوسع الذي يحتويها ويشملها ، تعالج هذه الوحدات في إطار جدلية المستوى المحلي والمستوي الكلي (الشمولي) اللتين تتميزان بتجانسهما الداخلي (تجانس ثقافي) والخارجي (مقارنة مع وحدات أخرى) .

تساهم مكانة موضوع البحث في الأنتروبولوجيا بدون شك في إعطاءه الإستقلالية النسبية ونموذجية لأن إختيار الموضوع يقوم على أساس تباينه مع المجتمع الكلي، لذا يتم هذا الإختيار بهدف إضاءة المجتمع الكلي على خلاف الإختيار الإرتجالي أو الاعتباطي . وفي السياق نفسه يمكن التركيز على أن هذا الموضوع يتميز بتباينه مع ما هو سائد من قيم وممارسات وليس من خلال طبيعته القديمة كما أنه يتسم بمميزات مغايرة لتلك المميزات التي يتسم بها الباحث الأنثروبولوجي .

ولعل ما تهدف إليه الدراسة الأنثروبولوجية في خضم التطور التاريخي للمجتمعات هو مدى قدرتها على إدراك اللامتغير،الدائم (le permanent بدلا من العابر والمؤقت (le provisoire ). وللتدليل على ذلك يمكن

أن نسيق بعض الأمثلة التوضيحية المرتبطة بالمجتمع الجزائري حول هذه المسألة بالذات، ويمكن ذكر فيما يخص الظواهر اللامتغيرة أي تلك التي تعمّر لزمن طويل منها، الدين والتدين ، الشعبوبة،المساواتية ، الشفهية ، النيف ، الطابع التضامني ، الإستقلالية النسبية عن المركز،الرغبة في الإعتراف من طرف الغير بعامة والمسؤول بخاصة ، نموذج الزواج الأصلي والمجتمع الذكوري.....أما بالنسبة للظواهر العابرة والمؤقتة يمكن الإشارة إلى مواضيع مثل العمل المأجور ومركزيته ، الأنانية والجموح عن العمل ...

ويكن أيضا رصد لغرض التوضيح مواضيع بحث وجيهة ، أصبحت الأنثروبولوجيا مطالبة بالتفكير فيها في الوقت الحاضر، ويتمثل في المستوي المحلي والمستوي الكوني بمعي أنها مواضيع أضحت تهتم بالجنس البشري وكذا المجتمعات البشرية التي يمكن حصرها في اللغيرية ( الأنا والأخر ) ، العلاقة بين التقليدي (المحلي) والمعاصر (الحداثي). هذه الجدلية التي تترتب عنها ظاهرة الاستعارة الثقافية وما يتبعها من تلاقح ثقافي أو «تقاطب ثقافي» مهما كانت تداعياته .نقصد بالتداعيات على سبيل المثال، كيفية التفكير في الحداثة حاضرا في مجتمعاتنا المحلية و المجتمعات المتطورة أي التفكير في الوحدة والاختلاف عند الجنس البشري . ونرمي من وراء الاشارة الى هذه الاشكالية الى فكرة التجانس من جهة وبروز الخصوصيات الثقافية كانت دينية أو إثنية من جهة أخري. وبناءا على ذلك نصل مع» ف.لبلانتين» إلى القواسم المشتركة بين الأجناس البشرية أي قدرتهم على الاختلاف فيما بينهم .ويظهر ذلك في الأعراف واللغات وأنماط المعرفة والمؤسسات و حتي الألعاب المتباينة ...فممّا لا جدال فيه ، هو أن هناك شيئا طبيعيا يخص الجنس البشري فهو يتمثل أساسا في إستعداداتها للإختلاف الثقافي والأجتماعي ، لذا يمكن القول من وجهة نظرنا حتى و إن كنّا على علم بالتباين القائم بين مختلف الاشكاليات المرتبطة بشبكات التحليل الأنثروبولوجية ، أن هناك شبه إتفاق حتي لا نقول إتفاق تام على أن الوجاهة الأنثروبولوجية تتمثل جوهريا في نظرتها الخصوصية والمتميزة المتمثلة في التوضيح الخصوصي أو الرؤية المتميّزة ( le type d'éclairage) المضيئة حيث ترتب عن هذه الطريقة –كما يؤكد الباحث نفسه – ثورة إبيستيمولوجية حقيقية والتي تبدأ في الثورة على مستوى النظرة (le regard) ، ممّا تولد عنها انحراف راديكالي بخصوص الانطلاق الدائم من المركز أي إنفجار فكر وجود مركز واحد للعالم. لقد ساهم هذا في حدود كبيرة في اكتشاف ظاهرة الغيرية التي عبدت الطريق للبحث في عدم مطابقة الإنسانية الأوروبية على سبيل المثال بالإنسانية جمعاء.

ويمكن التأكد بقوة بخصوص أسس الطريقة الأنثروبولوجية أنها تستعمل تقنيات ( أدوات بحث ) نوعية منها تقنيات أساسها الشفهية، المقابلة و الملاحظة بالمشاركة الميدانية . يبقي الأنثروبولوجي على المستوى الابيستيمولوجي ،أي على مسافة بعد بين الذّات العارفة وموضوع المعرفة .هذا من جهة، إذ لا يجب إهمال الفكرة الدّاعية إلى امتثال الباحث لخارجانية –كون الشئ خارجي– عن موضوع بحثه، ناهيك عن إبتعاده عن فكرة وجود مركز ينطلق منه فضلا عن تنبيه للمقارنة من جهة ثانية .

تمتاز الطريقة الأنثروبولوجية بنوع التوضيح ( الاضاءة) التي تلقيها على موضوع البحث ، فالأنثروبولوجي ينطلق من موقف المشاهَد (الملاحَظ) لأن «الأنثروبولوجيا هي علم اجتماعي الملاحَظ» على حد قول «كلود لفي ستراوس» ، أنها أهم ميزة خصّها بها. ولعلّ من أهم ما يجب الابتعاد عنه – قدر المستطاع – منظور المجتمع الكلي ، هذا المنظور الذي ينمي إليه الباحث الأنثروبولوجي ومن ثم ضرورة الابتعاد عن الواقع المؤسساتي (الرسمي) عند بناء إشكالية بحثه، فهو ملزم أكثر من غيره الرفض وبطريقة قطعة الانطلاق من الفرضية الجاهزة والتي يحاول التّدقيق فيها أو التّحقق منها بَعديًا من خلال إجراء التحقيق الميداني كما تفعل بعض العلوم الاجتماعية الأخري .هكذا نجد الباحث ينطلق من البعد الدّاخلي والديناميك أي البعد اللارسمي والخفي .

من هنا يمكن التّذكير بأن علم الاجتماع في صورته التقليدية المهيمنة بمختلف توجهاتها ، يقف موقف المشاهِد ( الملاحِظ) في أغلب الأحيان، أي أنّه ينطلق من منظور المجتمع الكلي والمؤسساتي الذي ينتمى إليه الباحث. لذا نلاحظ أن هذا الصنف من علماء الاجتماع أو بالاحرى المشتغلين في مجال علم الاجتماع ، ينطلقون من فرضيات قد تكون جاهزة ، يراد تدقيقها فقط أو التحققق منها ، إنها محاولة لتطويع الواقع حسب نظرة وقناعة الباحث الخاصة ، الأمر الذي يجعلها تظهر على أنها مسألة متعلقة بتموضع الباحث في اشكاليات نظرية جاهزة يصعب مساءلتها ومن ثم يصعب أيضا تعديها ، ويتم كل هذا على أساس الصورة التي حاولنا تشكيلها مع الطريقة التي ينتهجها الأنثروبولوجي .

**المحاضرة الخامسة والسادسة:**

**- ما هي القاعدة الابستيمولوجية التي نأخذ بها؟**

ففي تقديرنا لا مناص من الامتثال للقاعدة القائلة:«إن كل تصوير للواقع لا يمكن أن يكون إلا تصوير جزئي»؛ بمعنى أن الواقع المعيش هو دائما وأبدا أوسع من النظرية، من نموذج التحليل الذي يتبناه الباحث وأن ما يراه أو يعتقد فيه باحث عنصر أساسي بنيوي، قد يراه باحث آخر ثانوي وعابر، ولكن والأمر كذلك أي ونحن نعترف بشساعة وتعقيد الظواهر والتجارب الاجتماعية بجزئياتها اللا متناهية تقريبا لا يسعنا إلا الابتعاد عن الفكرة القائلة إننا لا يمكن فعل شيء أو الأخذ بالفكرة المعاكسة إنه باستطاعتنا قول كل شيء، بمعنى ضروري الأخذ بكل جزئيات الواقع الاجتماعي.

فمن خلال العدد الكبير للظواهر باتجاهاتها ومسالكها يجب على الباحث استخراج كما فعل ذلك «تومسن» (Tompson) «التوجهات الأكثر دلالة وتحديدا»[1].

لذا لا يمكن الوصول إلى هذا المبتغى إلا إذا آمنا بفكرة «أن المنتوج العلمي الجاهز المحصل عليه من وراء تحقيق ميداني يحتوي على نموذج تحليلي في مجموعه، هذا النموذج الذي ينظم تصور الباحث والذي يهدف أيضا إلى إعادة تنظيم رؤية القارئ»[2].

ضروري أن لا نخلط بين الأداة والمنهج، بمعنى نموذج التحليل أو شبكة التحليل؛ فمهما بلغت الأداة من قوة ومن استحسان لدى الباحثين فهي –حسب اعتقادنا– غير كافية، وبالتالي لا تخرج عن ما أسميناه بالثقافة العامة في المنهجية؛ كما لا يكفي أن نقول أننا وظفنا الأداة الكيفية واضعين على جانب الأداة الكمية (وهنا نفتح قوس لنقول أن الجدل القائم بين الكيفي والكمي جدل لا أساس له من الجدية العلمية). يمكن ذكر في باب الأدوات الكيفية في مقابل الأدوات الكمية (الاستبيان أساسا) على سبيل المثال، الاهتمام بالواقعي، الموازي، المعيش،

---

[1] CAMPENHOUDT .Luc Van., Introduction à l'analyse des phénomènes sociaux, Ed. Dumond , 2012, p201.

[2] - -Chapoulie In Masson., Faire de la sociologie : les grandes enquêtes françaises depuis 1945,oP. cit., p195.

اليومي والنوعي...ويتم البحث في ذلك باستعمال المقابلة بأنواعها، سيرة الحياة، الملاحظة بالمشاركة، الملاحظة السرية، الملاحظة التي يتردد فيها الباحث على الميدان بصفة منقطعة...تعد الملاحظة بالمشاركة من أفضل الأدوات وبخاصة في فترة التسعينات مهما الانتقادات التي وجهت لها.

إن أهم ما تقتضيه هذه الأخيرة عنصرا أساسيا يتمثل في إدراك المعطيات التي يمكن ترجمتها في التأثيرات السوسيو-ثقافية وحتى السياسية الخارجية، هذه التأثيرات الكلية على المجتمع وعلى الجماعات المعنية؛ فدون ذلك نعتقد أن الباحث يرجع من الميدان كما ذهب إليه في أسوأ الحالات، وفي أحسنها لا يتعدى أن يقوم بعمل إثنوغرافي لجمع وتصنيف المعطيات المجمعة أو مونوغرافيا، وفي هذا السياق يقول «ألان توران»: «ضروري من كل بحث التقيد بصياغة فرضيات عامة... وإلا أمكن لهذه الأبحاث أن تكون فقط مونوغرافيات مفصلة و بدون فائدة؛ لا تساهم بأي حال من الأحوال في دراسة المشاكل الرئيسية للمجتمع الصناعي»[3].

بإمكاننا الاستفاضة حول هذه النقطة بالذات، ومع هذا لا يسعنا إلا أن نستعين بمقولتين لـ «بيار بورديو»على لسان «فيلب ماسون»: «يريد بورديو التأكيد على أن لزارسفيلد (Lazarsfeld) نسي حسبه أن التحقيق الميداني هو أيضا علاقة اجتماعية وبالتالي ليس هناك معطيات نقية نحصل عليها فورا»[4].

ويضيف «ماسون»: «بالنسبة لبورديو وباسرون لا وجود لأسئلة وأجوبة حيادية، ولا يجب الاعتقاد أن الاستبيان يضمن الأجوبة. ليس هناك إذن معطيات نحصل عليها بطريقة فورية لأنها دائما تبين بواسطة الباحث»[5]. فمما هو معروف عن الأبحاث الامبريقية في مجملها لبورديو مثلا، أنها تضع مسألة الطبقات الاجتماعية في مركز عملية جمع المعطيات وتحليلها. فحتى الأداة الكيفية لا تخرج عن قالب الثقافة السوسيولوجية العامة في المنهجية إذا هي جانبت متطلبات الوجاهة العلمية السليمة.

ويبقى العمل الرابع (2008)، العمل الأهم حسب تقديرنا من بين الأعمال السالفة الذكر. يذكر في هذا الإنجاز

---

[3] -Touraine A, In Ph. Masson, Ibid., p44.

[4] -MASSON Ph., Ibid, P50.

[5] -Ibid. p94.

العلمي نذير معروف الإشكاليات الأنثروبولوجية التي عالجت واقع المغرب العربي:

المجتمع القرابي (السلالة الأبوية).

المجتمعات الانقسامية وبخاصة طبيعة القبيلة في شمال إفريقيا مع كل من «جاك بارك» و«جرمان تيون».

المتغير الإرثي(الموروث)، المتغير الذي يسمح بالفصل بين الطبيعة الثقافية والدينية للزعامات التقليدية والطبيعة الإيديولوجية السياسية للزعامات الحداثية، أي كيفية إعادة إنتاج النظام الأبوي بخطاب سياسي حداثي، بمعنى التوظيف التعاقدي كشكل ودوام الأنماط الإقطاعية كبنية، مما يبين أن المجتمع التعاقدي ما هو إلا حيلة، بينما يعتبر المجتمع الحقيقي بمثابة التنظيم الاجتماعي الفعال، إنها الأطروحة التي كان من ورائها «كليفورد غرتس» (Geertz Clifford) .

وفي الاتجاه نفسه، تفيدنا الدراسات الأنثروبولوجية وبخاصة من خلال مدارسها على حد رأي «دولياج روبرت»[6] وقد تشترك معها الدراسات السوسيولوجية حول جوهر رؤيتها.

– المدرسة التطورية: تنطلق هذه المدرسة من مسلمة وحدة الجنس البشري، مما يدلل على الاهتمام بالتشابه ووضع على جانب الخصوصيات والاختلافات الثقافية، مما يستدعي توظيف المنهج المقارن أساسا.

– المدرسة الثقافوية: تمتاز هذه النظرية بموضوع بحث ينحصر في كيفية تطور مؤسسة ما تاريخيا.

– الأنثروبولوجيا الديناميكية: التي يتمثل موضوعها في مجموعة الاختلافات المكونة للعلاقات في نظام اجتماعي معين، ولكن يجب الإشارة إلى أن هذه الاختلافات تحمل دائما في طياتها توترات، إنه التكامل والتعارض في اللحظة نفسها.

– المدرسة الوظيفية: البحث في كيفية اشتغال مؤسسة ما، مع مكانتها ودورها في المجموع الاجتماعي.

– المدرسة البنيوية: البحث في كيف لمؤسسة أن أصبحت على ما هي عليه اليوم. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه النظريات الكلية التي انتشر صداها بقوة في السنوات ما بين الخمسينات وحتى السبعينات تراجع تأثيرها ابتداءً من الثمانينات حتى وإن لا زالت قائمة لتترك المكان للنظريات التي جوهر اهتمامها الفرد بوصفه وحدة

---

[6] - DELIEGE Robert., une histoire de l’anthropologie, Ed. du Seuil, 2006.

**ملحوظة** انظر بشير محمد(شخصي)،علماء اجتماع التنظيمات والعمل في الجزائر:الرعيل الأول،توطئة نذير معروف،الطبعة الثانية،تمسان/الجزائر،دار كنوز النشر والتوزيع،2019.

التحليل الأقل حجما.